كلمة الأستاذ محمد المبارك [1]

بسم الله الرحمن الرحيم

ان هذا الشرف الذي اوليته بضمي الى اسرة أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق ليس معناه الا المشاركة في هذه الامانة التي يضطلع المجمع بحملها في هذه المرحلة من حياتنا والمساهمة في عمله الضخم في بناء الكيان العربي ولا سيما حفظ اللغة وتجديدها المستمر .

ويقضي علي الوفاء في هذا المقام ان اذكر للمجمع العلمي بدمشق أوليته وبلاءه ومكانته من تاريخ نهضتنا ولا سيما اللغوية .

فقد استقل العرب في بلاد الشام وانفصلوا عن الاتراك اثر الحرب العالمية الاولى بعد أن قضوا عصوراً طويلة بعيدين عن القيادة الفكرية والسياسية التي كانوا يتبرؤونها في عهود الفتوح الأولى فانصرفت همهم بعد الاستقلال الى انشاء الدولة العربية بجهازها وادارتها وتعليمها ولغتها بعد ضعف شامل طويل الأمد ، ولم يكن في بلاد الشام يومئذ إذا استثنينا المدارس القديمة والحلقات معهد ينشر العلم ويحيي تراث السلف ويعرب المصطلحات وينقل نتاج الحضارة الحديثة ، فانشىء المجمع لسد هذه الحاجات والقيام بأمرها قبل أن ينتشر التعليم وتعم الثقافة وتكثر النوادي الادبية والمجلات . فقد كان المجمع في تلك الفترة من حياتنا معهداً عالياً للأبحاث اللغوية والأدبية والعلمية في مجلته ومنشوراته ومنتدى للخاصة من العلماء في جلساته ومدرسة لتثقيف الشعب في محاضراته الاسبوعية الدائمة التي كان يخصص بعضها للنساء .

---

(١) ألقاها الأستاذ محمد المبارك العضو العامل الجديد يوم حفلة استقباله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لقد أتيح لي أن أعيش في حداثتي من نحو ثلاثين سنة في ذلك الجو المجمعي فقد كان والدي رحمه الله عضواً عاملاً في المجمع منذ أوائل سني انشائه فكنت اصحبه في بعض تلك الندوات الخاصة بالأعضاء واسمع منه حكاية ما كان يدور بينهم من مناقشات وأبحاث ، وأتلقى مغتبطاً اعداد المجلة قارئاً أو متصفحاً واشهد الكثير من محاضرات المجمع ومهرجاناته الكبرى احتفاء بأديب كبير أو احياء لذكرى عظيم من رجالات السلف أو الخلف .

لقد كانت تلك المرحلة من حياة المجمع بعث التراث العربي ولا سيما اللغوي ليكون أداة أساسية في بناء الحياة الجديدة وكانت مهمته حفظ اللغة وجمعها والكشف عنها والتعريف بها وتجديد عرضها على الناس ليأخذوا بأحسنها والذود عنها أمام خصومها وإخراج الناس من إسفاف العامية وتحرير أهل الأدب من أغلال الصنعة ومحاولة التجديد في اللغة لسد ما جد من الحاجات وتسمية ما نشأ من المستحدثات على طريقة العرب وسليقتهم .

وقد قيض الله للمجمع يومئذ طائفة مختارة من حفاظ اللغة ورواتها وحماتها والذائدين عنها ممن يندر أن يجتمع مثلهم في هذا العصر ولا تزال منهم بقية صالحة من أعضاء المجمع ممن شاركوا في ذلك العهد ، وكان في المجمع كذلك نفر كريم ممن ضربوا بسهم في شتى أبواب الثقافة وشاركوا في فنون المعرفة فمنهم المتبحر في علوم الشريعة أو التاريخ والتراجم ، ومنهم المتخصص في الأدب والنقد ، ومنهم من جمع بين اللغة والعلوم الطبيعية أو الطب أو الحقوق والاجتماع .

وان استعراض أعضاء المجمع في مرحلته الأولى وتصفح مجلدات مجلته وما تضمنته من قالد العلم وطارفه والاطلاع على ما نشر من كتب وأذاع من محاضرات ليعطينا فكرة واضحة عن عمل المجمع وجهده وعن اتجاهه وطريقته ومجالاته وآفاقه مما كان له أثر محمود وثمار طيبة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فقد كان المجمع في تلك الحقبة من تاريخ العرب عامة وبلاد الشام خاصة حصنا للعربية ومعقلا من معاقلها وان ما نشر لاعضائه وغيرهم من موضوعات أو محاضرات في الذود عن العربية والدفاع عن تراث العرب وحضارة الاسلام امام مطاعن الشعوبيين والمستشرقين ودعاة الاقليمية وأنصار العامية من أعداء العربية ليؤلف بناء شامخاً متين الأسس .

وقد كان لاستاذنا الكبير سليم الجندي رحمه الله في تلك المرحلة من تاريخ المجمع وبين طائفة اللغويين الكبار من أعضائه منزلة مرموقة وموقع خاص وفضل ظاهر . فقد أتيح له في النشأة والبيئة والتربية والدراسة أن يجمع بين علوم اللغة والدين ولا بد لكل من أراد التعمق فيهما من أن يستظهر بهما معاً وينهل من منهليهما .

وقد قيض الله له أن يعيش في ملتقى عهدين قديم وجديد ولكل منهما ثقافته وأفكاره ومنهاجه وطريقته ولئن كانت وشائجه بالقديم أوصل وحظه من ثقافته وأسلوبه أوفى فانه أشرف كذلك على الجديد اشرافا مكّنه أن يأخذ منه بنصيب صالح فجمع بين مزايا الثقافتين وخصائص الأسلوبين .

وقد امتاز الأستاذ الجندي رحمه الله من أقرانه وزملائه من علماء اللغة والأدب بكثرة آثاره ومشاركته في ميادين الكتابة العلمية مشاركة تمكننا من معرفة خصائصه وتقدير مزاياه وتحديد مكانته .

وكان الميدان الذي ترك فيه آثاراً نافعة وبرز فيه تبريزاً عظيما هو ميدان اللغة وتاريخ الأدب فله في اللغة بما طبع مجموعا في كتاب أو مفرقا في مجلة المجمع رسالة في الكرم وأخرى في الطرق وتحقيق رسالة الملائكة للمعري . وظهر مذهبه اللغوي واتجاهه فيها في كتاب اصلاح الفاسد من لغة الجرائد وله في الدراسات التاريخية الأدبية عدد من المؤلفات ولكن الأثر الذي بلغ فيه الذروة في الدراسة التاريخية الأدبية هو كتابه عن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أبي العلاء المعري الذي يتولى المجمع طبعه الآن وطبع منه ما يزيد على ثلاثمائة صفحة ، وقد دل فيه المؤلف على مقدرة عظيمة وصبر طويل على التحقيق التاريخي والمقابلة بين المراجع والأقوال والجرأة على النقد القويم للمتقدمين والمتأخرين من المؤلفين في الموضوع حتى بدت حياة المعري ذات الألوان والصور الملتبسة الغامضة صورة مفصلة واضحة لقارىء كتابه هذا .

لقد عرف للأستاذ الجندي رحمه الله قبل هذا الكتاب دراسات في تاريخ الأدب العربي عن امرىء القيس والنابغة وعلي بن أبي طالب وابن المقفع وكان في دراساته هذه قديماً يحاول التجديد واستعين بما عرف به الراسخون من أهل الثقافة القديمة من تدفيق في الجزئيات وتثبت في النقل وقدرة على الإحاطة والجمع وقوة في الحفظ واعتماد على المنطق حين تعوز الحوادث التاريخية . فقد استعان بهـذا كله ليفرغها في القوالب الحديثة للدراسة الأدبية من دراسة البيئة والعصر وتحليل خصائص الأديب والربط بين حياته وآثاره ، وان كانت المقاييس الأدبية والتاريخية التي اتخذها هي في مضمونها قديمة أو إلى القديمة أقرب ، ولكن من يطلع على آثار الأستاذ الجندي الأدبية يتبين له كثير من عيوب بعض المؤلفات الأدبية في هذا العصر من سرعة استنتاج وبعد عن التثبت في النقل وقلة صبر على تحقيق المراجع وسرعة مجاراة المستشرقين الذين تعوزهم ملكة العربية ولا يكتمل لديهم تذوق الأدب العربي وقـد يغلبهم الهوى أو الغرض أو تسوقهم فكرة خاطئة .

اننا حين نواجه آثار الجندي نواجه القديم بجوهره الأصيل وقوته الراسخة ومزاياه العظيمة ونشهد التقاء القديم بالحديث ولكنه القديم الواثق بنفسه المعتز بثروته الواعي في اقدامه على الحديث المتريث المتأني في أخذه واقتباسه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولكن تفوق الجندي في كتابه عن أبي العلاء هو من باب آخر وفي منزلة فوق هذه المنزلة ذلك انه اجتمعت له من أسباب الاجادة فيه ما لم يجتمع لغيره وما لم يجتمع له هو في كتاب آخر فقد أولع هو وأبوه من قبله بشعر أبي العلاء وكان بينه وبين أبي العلاء أواصر صلات عديدة منها نشوؤهما في بيت من بيوتات العلم في المعرة وانتماء كل منهما إلى قبيلة عربية واتفاقهما اتفاقاً كبيراً في المزاج والطبع وقد أشار الجندي إلى ذلك بقوله : « اذ يجمع بيننا وحدة الدين والوطن والجنس وقد نتحد في الهوى والنزعات كثيراً وقد تخرجت به في الشعر » .

أما مكانة الأستاذ الجندي في اللغة فلم تظهر في كتاب بعينه بقدر ما ظهرت في مواقفه في الدفاع عن اللغة وفي تأصيله روح المحافظة عليها في أجيال متلاحقة من تلاميذه وفي مساهمته في أعمال المجمع اللغوية في إيجاد الألفاظ واشتقاقها للدلالة على الجديد من المسميات والمعاني وفي تصحيح لغة الدواوين وفي الوقوف موقف الذود أمام هجمات المهاجمين أو موقف الشدة أمام المتساهلين المفرطين من بعض المشتغلين باللغة والأدب . ويبدو الأستاذ الجندي رحمه الله في كتابه اصلاح الفاسد من لغة الجرائد الذي رد فيه على الشيخ ابراهيم اليازجي وقسطاكي الحمصي على صغر حجمه صاحب ملكة راسخة في النحو واللغة واطلاع واسع على نصوصها وفهم دقيق لقواعدها مع قوة في الحفظ وجلد على مقارعة الخصم كما يبدو محافظاً في مذهبه اللغوي شديد المحافظة . وروح المحافظة بالنسبة إلى جيله وإلى المرحلة التي كانت تمر بها الثقافة العربية يومئذ ضرورة حيوية وحاجة تقتضيها سنة البقاء . فقد طغت في القرن الماضي موجة عارمة من الشك في جميع قيمنا الاعتقادية الفكرية والخلقية واللغوية والأدبية وحمل لواء هـــذا الاتجاه في التفكير كتاب من أدباء العربية فكان الأستاذ الجندي ممن يمثلون بقوة موقف المحافظة والدفاع عن التراث والسلف أمام هذه الموجة فيناقش في كتابه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الذي ألفه عن امرىء القيس رأي الدكتور طه حسين الذي شك في وجود الشاعر مناقشة عنيفة ويرد بقوة على الشعوبيين الذين يعزون نبوغ ابن المقفع إلى الدم الفارسي والأصل الآري ويصفون العرب بضعف الاستعداد وذلك في الفصل الذي كتبه عن أثر الدم في الثقافة والعبقرية في كتابه عن ابن المقفع .

وكان موقفه في اللغة أشد محافظة على القديم وأكثر تمسكا بالمنقول فما كان يستسيغ لنفسه أن يستعمل كلمة (التطور) مثلا أو (الفنان) أو (الانتاج) الأدبي أو (التحليل) العلمي لأن مثل هذه الألفاظ في رأيه غير مروية عن العرب وفي غيرها غنية عنها ولعل هذا التزمت والتشدد جواب لتساهل المتساهلين ومقابلة لتفريط المفرطين على مذهب من يرى أن التفريط في القليل يؤدي إلى التفريط في الكثير وفي ذلك انتهاك لحرمة اللغة وخرق لقواعدها وافساد لاصولها .

مع أن في بعض ذلك مندوحة لو رجعنا إلى الملكة العربية نحكمها في الأمر فقد استعمل العرب صيغة فعّال للنسب كالعطار والزيات نسبة إلى العطر والزيت وكذلك الفنان تجري على هذا النسق والتطور من الطور من باب الاشتقاق من الأسماء وهو باب واسع في كلام العرب .

ذلك هو استاذي الكبير سليم الجندي الذي شاءت إرادة الله أن أكون خلفا له في المجمع العلمي ولي في ذلك شرف عظيم وله موقع جميل من نفسي ذلك أن روابط وشيجة كانت تربطني به فقد كان أحد ثلاثة كان لهم في تكويني اللغوي والأدبي أثر كبير ، وثانيهم والدي رحمه الله وكان زميله في المجمع وصديقه في الحياة ، وثالثهم استاذهما الشيخ محمد بدر الدين محدث الشام الشهير في العصر الماضي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عرفت الأستاذ الجندي منذ كنت يافعاً أرافق والدي رحمه الله إلى المجالس الأدبية التي كانت تضمها والتي كانت تعقد في قاعة المجمع حينا ثم عرفته استاذاً لي في دروس اللغة العربية وآدابها في مدرسة التجهيز وزميلا لوالدي رحمها الله في ذلك المعهد الذي تخرج منه على أيديهما طبقة هم اليوم في طليعة الأدباء والشعراء والأساتذة في بلاد الشام . ثم تابعت الأستاذ رحمه الله في دروسه في مدرسة الأدب العليا التي كانت نواة لكلية الآداب حيث كان يلقي علينا دروساً في النحو على مستوى عال من التعمق والتوسع . ومن جميل المصادفات اني حللت بعد ذلك محله في تدريس الأدب العربي في تجهيز دمشق حين أحيل على التقاعد ورجعت من باريز بعد انتهاء دراستي فيهـــا ، وهاأنذا اليوم اختار لأخلفه في عضوية المجمع العلمي بدمشق ولكنها مهمة صعبة فأنّى لي أن أخلف الجندي في رسوخ قدمه في العربية وقوة ملكته وسعة روايته انها لمسؤولية أشعر بعبئها وأرجو الله أن يعينني على الاضطلاع بها . زد على ذلك أن المرحلة التي مثلها سليم الجندي وعبد القادر المبارك رحمهما الله واقرانهما مرحلة احياء التراث الأصيل والدفاع عنه قد أعقبتها مرحلة أخرى هي مرحلة التجديد والتوليد ولا بد لنا بعد أن انتصرنا في معركة الدفاع الأولى من أن نتابع السير ونكمل الطريق ونستمر في النجاح .

ولئن كانت المرحلة الأولى من مراحل نهضتنا اللغوية تقتضي رسوخ الملكة وسعة الرواية ومعرفة القواعد والأصول فان المرحلة الثانية تقتضي إلى جانب الملكة العربية في اللغة النظر إلى ذلك السيل الطامي من المسميات والمعاني التي رمتنا بها الحضارة الحديثة وثقافتها في شتى الميادين من علم النفس إلى الفيزياء الذرية ومن الفنون الجميلة إلى الفنون العسكرية سواء في الحياة العلمية النظرية أو في الحياة العملية اليومية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وليس الدفاع والمحافظة أبرز صفات هذه المرحلة الجديدة بل الملكة المولدة والقدرة على التجديد والإدراك الواعي لمشكلات اللغة والفكر والاحتفاظ بالأصالة وسلوك طريق عربية لا استعجام فيها ولا تشويه للفطرة العربية ، تلك هي الصفات البارزة في هذه المرحلة لا في ميدان اللغة فحسب بل في سائر ميادين نهضتنا .

ولا بد لنا ونحن ننهل في ميدان العلوم المادية والحياة العملية من الحضارات الأجنبية المعاصرة من أن نستفيد من تجربة اللغات الأجنبية ما يعيننا في تجربتنا على أن نعرف لكل لغة خصائصها وطرائقها في الاشتقاق والتوليد . وكان من حسن حظي أن أتاح الله لي فرصة الاطلاع على هذه التجربة في لغة غير العربية وفي ثقافة غير الثقافة العربية خلال دراستي في جامعة باريز في مجالات الأدب واللغة والاجتماع وأتيحت لي فرصة نادرة في التلمذة على عدد من فحول الأساتذة الذين قضى أكثرهم أمثال بول هازار ودانيل مورنه في الأدب الفرنسي وبرونو في اللغة الفرنسية وقواعدها ووليم مارسه وماسنيون من كبار المستشرقين ، وفوكونه وهالفاكس من كبار علماء الاجتماع . فكان ذلك مما مهد لي الطريق إلى تجربة شخصية في قضايا الفكر واللغة وفتح لي باباً جديداً في معالجة مسائل اللغة العربية والكشف عن خصائصها بطريق الموازنة والمقارنة وأوقع في نفسي مع ذلك الحذر من التقليد الحرفي والنقل الآلي والخلط بين خصائص اللغات أو فتون آدابها والانسياق في تيار نظريات المستشرقين وأصحاب المذاهب الاجتماعية .

وقد أودعت خلاصة تجربتي في اللغة في كتابين أخرجتهما حاولت في ثانيهما أن أقدم نظرية عامة مقارنة في خصائص العربية (١) .

---

(١) وهما : كتاب فقه اللغة وقد طبع في مطبعة جامعة دمشق ، وخصائص العربية وقد طبعه معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولكنني آثرت ولا سيما بعد اشتغالي بالتدريس الجامعي أن أحافظ على خطوط فكرية ثلاثة كنت دوماً أتنقل بينها وان اتابع الدراسة والبحث في آفاقها وهي اللغة والفكر الاسلامي وخصائص الأمة العربية .

بهذه التجربة الشخصية المتواضعة التي أقدمها في جو المرحلة التي وصفتها أدعى للمساهمة في عمل المجمع العلمي وقد سبقني في السير فيها اساتذة كبار منهم اليوم عدد من اعضاء المجمع الحاليين ممن ساهموا بقوة في هذه المرحلة الثانية بناءً وتجديداً وهم إذ اقترحوا ضمي إليهم وإلحاقي بركبهم حملوني فضلاً كبيراً وزادوني شعوراً بعبء هذه المسؤولية الادبية الكبرى واولوني ثقة ارجو الله ان يعينني على ان اضع نفسي منها حيث وضعوني او ان أربي على ذلك إذا أمدني الله بعون منه حفاظاً على لغة القرآن التي هي أداة تفكيرنا وفن تعبيرنا ووسيلة أدائنا لرسالتنا ؛ بها توارثنا مكارم امتنا وبها نزل كتاب الله علينا وفيها يكمن الكثير من قوتنا والثمين من تراثنا وشكراً للمجمع رئيسه وأعضائه على هذه التكرمة وشكراً لكم والسلام عليكم .

محمد المبارك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net